

الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

أ.د. لمسـن بلـشـير

إن الدراسات اللغوية الحديثة وأسلوب معالجتها يرجع إلى طريقة تناولها من الواجهة العلمية المحضة ، وهذا لا ينتقص شيئا من فائدة الدراسات القديمة وإنما يزيد بها قداسة بحيث يعتبرها الكثير من المفكرين العلماء المرتكز الأساس في كل دراسة فكرية لغوية جديدة، لأنها ما زالت تمدنا بما نعتد عليه في بحوثنا، فقد حصل تطور كبير في مجال الدراسات اللغوية عند مختلف الشعوب التي اهتمت بدراسة لغتها، وتحققت لديها نتائج مذهلة. فعندما تم اكتشاف اللغة السنسكريتية التي مكنتم الجميع بالاطلاع على التراث اللغوي الهندي الرائع الذي خلفه علماءهم حين درسوا لغتهم بهدف ديني واضح، هو الرغبة في التمكن من قراءة (الفيدا) وهو كتاب مقدس، وصف فيه أصوات تلك اللغة وتراكيبها الصرفية والنحوية وصفا دقيقا ، وقد ترجم جانب كبير من هذا التراث إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية .

وقد تأثر الغربيون في العصر الحديث بالعالم اللغوي الهندي (بانيني) واعتبروه أعظم لغوي وصاف في العالم القديم ، وعنه اخذوا المنهج الوصفي بل " لا تزال آراء (بانيني) اللغوية مقبولة لدى الغربيين المحدثين حتى أن بعض المصطلحات الفنية التي وضعها لعدد من الظواهر اللغوية لا يزال مستعملا حتى الآن " 1

والملاحظ على الدرس اللغوي في القرن التاسع عشر قد اتخذ طابع التاريخ اللغوي و المقارنات اللغوية وكانت فيه اللغة السنسكريتية أساس البحث اللغوي الحديث حتى أن (ماكس مولر) قال: " إن السنسكريتية هي الأساس الوحيد لفقه اللغة المقارن ، وسوف تبقى المرشد الوحيد الصحيح لهذا العلم، وعالم فقه اللغة المقارن الذي لا يعرف السنسكريتية شأنه شأن عالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات " 2

غير أن سيطرة هذه اللغة على ميدان الدراسة اللغوية في أوروبا أدت إلى انحراف دراستها عن الواجهة العلمية الصحيحة. وهو ما أدى إلى ظهور آراء مناهضة لأفكارها، ودعت أول الأمر إلى التفريق بين أمرين كانا يختلطان اختلاطا كبيرا وهما ما يعرف philology المقصود به (فقه اللغة) وهو دراسة اللغة المكتوبة أما الثاني linguistique ويقصد به (علم اللغة) فهو يتخذ موضوع دراسة اللغة من حيث هي ، دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، كما قال سويسر فيما بعد سواء كانت هذه اللغة مكتوبة أو غير مكتوبة . 3 . وبمفهوم آخر فإن فقه اللغة يدرس اللغة بوصفها وسيلة لغاية أخرى كدراسة ثقافة أمة وأدابها وحضاراتها، أما علم اللغة فيدرس اللغة من أجل ذاتها.

1 - المدرسة البنيوية

يعد سوسير رائد هذه المدرسة تأثر فيها بأسس النظرية الاجتماعية ذات الطابع الوصفي حيث نظر إلى اللغة بوصفها بنية متماسكة تنطوي على شبكة من العلاقات المتبادلة بين مختلف عناصرها وفق مستويات التحليل اللغوي فلا يمكن وصف ال ظاهرة اللغوية 3 دون التطرق إلى بنية الجوانب الأخرى ، وقد اعتمد سوسير في دراسته اللغوية على مبدأ الثنائيات التي ترمي في مجملها إلى تأسيس أرضية صلبة لإمكانية وجود نظرية لسانية قادرة على تقويم لكل جانب من جوانب الظاهرة اللغوية ، ومما تجدر الإشارة إليها هنا هو أن هذه الثنائيات إذا ما تأملناها نجدها تحيط إحاطة منهجية بكل اهتمامات البحث العلمي من حيث الظاهرة اللغوية ، وموضوع البحث ومن حيث عناصره المكونة 4.

اللغة بالم فهوم المطلق عند سوسر هي عبارة عن الميول والقدرات اللغوية عن د الإنسان بصفة عامة وهي اجتماعية وفردية في آن واحد، وهي بالإضافة إلى ذلك غير متجانسة متعددة الأشكال والأنواع. وهي وظيفة جماهير المتكلمين في البيئة اللغوية المعينة، وهي عبارة عن مجموعة من النظم والقوانين اللغوية المخزونة في عقول هذه الجماهير، واللغة بهذا المعنى تمثل الجانب الاجتماعي من القضية وهي موضوع البحث في علم اللغة ، أما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم بالفعل ، وهو عبارة عن الأحداث اللغوية التي يحدثها المتكلم وقت الكلام الفعلي، والكلام شيء فردي كما انه شيء ثانوي بالنسبة للعلم اللغة ، إذ مكان دراسته علم النفس، ومن البديهي أن يركز دي سوسر اهتمامه بعد ذلك على التفريق بين اللغة المعينة والكلام إذ هما الجانبان اللذان يعينانه، ويكونان كلا لا يختص بدراسة اللغويين ولا غيرهم من العلماء ، إذ أن هذا الكل شيء مطلق لا وجود له في الخارج بذاته وإنما يتحقق وجوده في عناصره وأجزائه المكونة له، وتتمثل الأجزاء والعناصر في اللغة المعينة والكلام، وقد سار في نهج دي سوسر عدد كبير من اللغويين نذكر على سبيل المثال لا الحصر تلميذه تشارلز... وكذلك جاردينز ... الذي ألف كتابا كاملا بعنوان "الكلام واللغة".

والحق أن دي سوسر في قوله بالتفريق بين اللغة والكلام متأثرا ببعض علماء الاجتماع في التفريق بينما سموه "العقل أو الشعور الجماعي، والعقل والشعور الفردي" أما اللغة: فيقصد بها اللغة بالمعنى المطلق أو هي كلام ينقصه التكلم، إنها المجموعة الكلية للعادات اللغوية التي تسمح للفرد بأن يفهم وأن يفهم وهي على هذا الأساس ملك للفرد وللمجتمع أيضا، فهي فردية و اجتماعية في آن واحد . وهي لذلك ليست واقعة اجتماعية لأنها تتضمن العوامل الفردية المنسوبة على المتكلمين الأفراد وهي تقع على حدود عدة مجالات فيزيائية وفسولوجية ونفسية، وهي تتحقق في أشكال متعددة ومتنافرة ولذلك لا يمكن دراستها دراسة علمية لما تفتقده من مبدأ التجانس والوحدة .

الكلام: ويمثله كلام الفرد ويصدر عن غير وعي ولأنه نتاج فردي كامل، متباين المقومات متعدد الأشكال موزعا بين مجالات متعددة منتما في الآن نفسها إلى ما هو فردي وجماعي فلا يتسنى لأي دارس ترتيبه ضمن الطواهر الاجتماعية لعدم قدرتنا على استخراج وحدته .

وهو عند سوسير " كل ما يلفظه أفراد المجتمع المعين ، أي ما يختارونه من مفردات وتراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة" 5

أما اللسان فهو اللغة المعينة الصالحة للدراسة العلمية كالعربية والإنجليزية وسواهما، وهو مجموعة من الصور اللفظية المخزونة في العقل الجماعي ، وهذه الصور ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد ، وهو نتاج اجتماعي لمملكة اللغة ، وهو خارج عن نطاق الفرد ، لأنه يرثه باعتباره تراثا جماعيا ، وليس له في هذا الميراث أي نوع من الاختيار ، فهو لا يملك التدخل في اختيار مفرداته أو تنظيم قواعده ، واللسان لا يوجد إلا بنوع من الاتفاق الجماعي ولذا فإن الإنسان لا يستحوذ على اللسان إلا بالدربة والمران .

وكما يرى سوسير الكلام لا يمكن دراسته دراسة علمية لأنه فردي ، والفردي يقوم على عنصر الاختيار، وعنصر الاختيار لا يمكن التنبؤ به وما لا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية . واللغة كذلك لا تدرس بشكل علمي لأنها لا تمثل واقعة اجتماعية خالصة حيث أنها تخص الفرد وتخص الجماعة ، ولم يبق إذن إلا اللسان فهو وحده الذي يمكن دراسته دراسة علمية لأنه موضوع محدد يتصف بالتجانس ، ولذا يمكن ملاحظته وتصنيفه ، وله بذلك مكان بارز بين الحقائق الإنسانية.

موقف ياسيرسن من اللغة والكلام

أن أغلب علماء اللغة المعاصرين وفي مقدمتهم أتباع المدرسة الإنجليزية الحديثة بريادة "فيرث" لا يرون هذا الرأي ولا يأخذون به فالتفريق بين اللغة أي (اللغة المعينة) والكلام عندهم ليس له ما يبرره من حيث المنطق والواقع إذ هما في نظر هؤلاء جانبان لشيء واحد أو هما مصطلحان يطلقان على مسمى واحد، وكل منهما اجتماعي وفردي وكل منهما عقلي ومادي ، وهما متداخلان إلى درجة يصعب معها التفريق بينهما . فالكلام الذي يصدر عن الفرد المتكلم ليس إلا أسلوبا من كلام الجماعة ، وكلام الجماعة ليس إلا حصيلة كلام الأفراد ، كما نجد من ناحية ثانية أن هذه المدرسة تنتكر للتفريق بين اللغة والكلام لأسباب منهجية حيث يتضمن بعض عناصر الكلام الإنساني عناصر عقلية محضة (وهذه تتمثل في اللغة على رأي القائل بالتفريق) وبعضها الآخر مادي صرف (وهذه تتمثل في الكلام) وهذه الثنائية من عناصر الكلام الإنساني لا تعترف بها هذه المدرسة التي تؤمن بأن الكلام (من أي وجهة نظرت إليه) وحدة متكاملة الأجزاء والعناصر ولا يجوز الفصل بين جوانبه . وإذا كان من الضروري أن نفرق بين لغة الفرد ولغة الجماعة ولو أن الفرد عنصر من ها وابن بيتنها، جاز لنا أن نسمي أحدهما "لغة الجماعة" والآخر "لغة الفرد" وذلك وفقا للزاوية التي ننظر منها إلى الموضوع.

فقد تصدى العالم الدانمركي ياسيرسن لأراء سوسير هذه ورفض قوله أن الكلام من نتاج الأفراد، وإن اللسان من نتاج المجتمع ، واعتبر أن الكلام واللسان هما شيان لأمر واحد، فالكلام وإن كان نشاطا فرديا إلا أنه يرتبط بعنصر اجتماعي، هو الإفهام . ومصطلح (اللسان) المعين هو جميع ما ينطق به كل أفراد من ألفاظ مهما اختلفت درجة شيوعتها، والأمر كذلك بالنسبة للتراكيب ومخارج الحروف. 6

و ذهب إلى حد القول "لوصح أن كل أفراد المجموعة الاجتماعية الواحدة أو معظمهم فكروا بطريقة واحدة ، و سلكوا في الحياة مسلكا موحد ا ما جاز لنا أن نقول بوجود عقل جماعي ، ولكن يمكن أن نقول أن هناك عقول متعددة يشبه بعضها بعضا ، ومن ثم أمكن التفكير بطريقة واحدة واتخاذ في الحياة مسلكا متشابها .

"إذا كان ال لسان عند دي سوسر مجموعة من الصور الذهنية للكلمات والتراكيب اللغوية الموجودة لدى جماعة لغوية خاصة ، ومستقر هذه الصور أذهان الأفراد ، فلماذا تكون الصور الذهنية المستقرة في ذهن فرد خاص ؟ أهى كلام أم لسان ؟ أنها بمفهوم سوسر ليست كلاما ، لأن الكلام عنده نشاط فعلي ، والصور الذهنية لدى فرد معين ليست كذلك، وهى أيضا ليست لسانا لأنها أمر فردي ، بينما اللسان أمر جماعي . فماذا تكون إذن إن لم تكن كلاما ولا لسانا؟".⁷ ولمعالجة هذه القضايا اللغوية الشائكة في اللغة نجد ان يسبرسن يضع هو الآخر ثلاث مصطلحات لمعالجة هذه المشكلة وهى تتمثل في:

1- الحدث اللغوي : وهو نطق فرد معين بعبارة معينة مرة واحدة، ولو أن الفرد نفسه كرر العبارة نفسها ، فان هذا يشكل حدثا لغويا جديدا، لأنه لا يمكن أن تتشابه المواقف أو الدوافع للأحداث اللغوية في جميع تفصيلاتها"

2 - لغة الفرد " وهى القيم اللغوية الموجودة لدى فرد من الأفراد".

3 - لغة الجماعة " وهى مجموعة القيم اللغوية لدى أفراد الجماعة اللغوية الواحدة ".⁸ اللغة قد تكون فردية أو جماعية فردية حين تكون القواعد والعلاقات والتجريدات خاصة بفرد من الأفراد وجماعية حين تكون هذه الأمور عامة تشمل الجماعة كلها .

فعرينما نحاول قراءة الاتجاهين لا نكاد نجد فرقا شاسعا كما يتوهمه بعض الدارسين وإنما أراء سوسر وباسبرسن متقاربة جدا، فكلاهما أكد أن دارس علم اللغة يمثل الجماعة ، وقد أشار سوسر إلى أن (اللغة) هى (اللسان) بعد أن طرح منه الكلام ، ويفهم من هذا أن موضوع علم اللغة هو الأحداث اللغوية التى تشمل الجماعة ، لا الأحداث اللغوية التى تمثل الفرد . وكثيرا ما نستعمل مصطلح لغة ونحن نقصد من وراء ذلك الكلام ، فنقول مثلا لغة فلان جيدة أو لغته رديئة ونح ن لا نريد من ذلك غير الكلام .ولا بد من التركيز هنا على أن الكلام عملية معقدة " تتم نتيجة مؤثرات خارجية وداخلية، مرئية أو مسموعة ، يستجيب لها الجهاز العصبي للمتكلم، فيصدره أو امره إلى أعضاء النطق ، فترسل هذه بدورها أصواتا تملضي في الهواء على شكل موجات صوتية ،فتتلقها أعضاء السمع عند المتلقي ناقله إياها إلى الجهاز العصبي، وقد يصدر هذا أو امره بعد ذلك إلى أعضاء النطق، وهكذا تحدث عملية الكلام ".⁹ ذلك أن الميزة الرئيسية للكلام أن تفسر كل إشارة بأخرى أكثر وضوحا، ومن هنا فان

كل تواصل يعتمد على عمليتين،عملية بناء المرسله وتقوم على انتقاء الكلمات من المخزون اللغوي للمتكلم لتتناسب مع الهدف المقصود وتتم على المحور الاستبدالي. أما العملية الثانية فتتمثل في ترتيب الكلمات جنبا إلى جنب وفق قواعد النظم التى تخضع لها ال لغة، ويتم ذلك

على المحور النظمي.¹⁰

والعمليات العقلية عند المتكلم والمتلقي ، لا تمخل في مجال علم اللغة ، بل يتناولها علم جديد أخذ في الاستقلال، هو (علم اللغة النفسي). أما علم اللغة فيخ نص بالنظر في الرموز الصوتية التي تنقل الفكرة من المتحدث إلى المتلقي ، فبيحت كيفية تكوين هذه الرموز الصوتية التي تنقل الفكرة من المتحدث إلى المتلقي ، فبيحت كيفية تكوين هذه الرموز الصوتية، وكيفية انضمام بعضها إلى بعض لتكوين الكلمات ، وكيفية تكوين الكلمات للجمل، ويتناول هذا العلم أيضا ارتباط هذه الرموز بالدلالة أو المعنى .

ويرى اللغويون المعاصرون أن تفريق سوسير بين اللغة والكلام كان ضروريا لدراسة قضية التطور اللغوي ذلك أن هذا التطور هو ضرب من التغيير الذي يشبه التغيير في العادات والتقاليد والأزياء " وهذا معناه أن التغيير اللغوي يبدأ عند فرد ما ، أي على مستوى الكلام، فإذا وجد هذا التجديد قبولا من المجتمع أصبح بمضي الوقت عرفا لغويا سائدا " .

فالتغيير اللغوي مصدره تجديد فردي يرتضيه المجتمع ، >> أما التجديد الذي يرفضه المجتمع فيبقى خارج مجال علم اللغة ، لأن علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وليس كل تغيير لغوي عند فرد ما أو مجموعة أفراد يقبل اجتماعيا، فإلى جانب تغيرات بدأت على مستوى البيئة اللغوية كلها، هناك تجدييدات فردية ظلت مرتبطة بمجموعة أفراد ولم تقبل اجتماعيا << 11 .

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها الدالة على أثر الفرد في إحداث التغيير اللغوي، ما لوحظ من أن (الراء) تلفظ (غينا) في نطق أهل باريس ، وأن هذا النطق بدأ عند أحد المرموقين في الدولة، فاستنظره المحيطون به من رجال البلاط، فقلدوه فيه وتلاه م على ذلك عدد من أبناء الطبقات المترفة، ثم انتقل إلى غيرهم من أبناء الشعب، حتى أصبح هذا النطق هو العرف اللغوي السائد . وإذا كان التغيير اللغوي السابق الذي بدأ في كلام فرد ، قد حظي بقبول الجماعة اللغوية كلها فغدا عرفا لغويا فإن ثمة تغيرا آخر بدأ في كلام بعض الأفراد، إلا أنه لم يظفر بالقبول فلم يعم . على العكس لم تستطع بعض الطالبات بجامعة قطر عربي تغيير بعض أصوات الأطباق دون القدر الضروري من الأطباق، فكادت (الطاء) مثلا تكون (تاء) وكادت (الضاد) تنطق (دالا) ولكن هذا الاتجاه في تغيير النطق ظل مقصورا على مجموعة الطالبات اللائي شرعن فيه، ولم يقبل اجتماعيا، ومن ثم لم يؤد إلى تغيير نطق هذه الأصوات. 12 ينظر البنيويون إلى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل. ولا يهدف إلى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين باللغة، بل كل ما يهدف إليه هو وصف نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي ووضع معاجمها. 13

فقد تغير وجه الدرس اللغوي مع مطلع القرن العشرين واتخذ له مسارا آخر والفضل كل الفضل يرجع إلى العالم اللغوي السويسري ذي سوسي ر في هذا التغيير، فقد طلع على معاصره بأفكار واتجاهات لغوية جديدة، أحدثت ثورة هامة في دراسة اللغة، وكان لها بالغ الأثر على العلوم الإنسانية سواء على مستوى النتائج أو على مستوى البحث مما جعلتهم ينصرفون عن الدراسات التاريخية والمقارنة ، وجنبت اهتمام علماء اللسان إلى دراسة لغاتهم الحية ليصفوا أصواتها ومفرداتها وتركيبها للوصول في النهاية إلى تقنيها وتقنيها .

ومن أجل هذا التغيير وصف سوسير بأنه رائد الدرس اللغوي الحديث وعلامة كبرى في تاريخه، لم يمتد على ظهور منهج سوسي ر سوى وقت قصير حتى عم أوروبا وأمريكا ، واخذ اللغويون هنا وهناك يطبقون ه في دراسة اللغات الحديثة الحية ، وظل المنهج الوحيد السائد حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين . وقد اهتم المنهج بدراسة بنية اللغة والعناصر المكونة لها بغية التوصل للقواعد والقوانين التي تتحكم في تلك البنية وتنظم استعمالها . ونتيجة لهذا المبدأ درست اللغات الأوروبية الحديثة ، ووضعت قواعد جديدة لها . ولذلك أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فلم يعد هناك معيار للصواب والخطأ مفروض على أفراد المجتمع بل أصبح كل ما يقوله مجتمع معين يعد لغة سليمة تستحق التسجيل في كتب القواعد ولم يستبعدوا إلا كلام السوقة وحتى تلك اللهجات المحلية المحدودة أوجدت لها دراسات خاصة بها . 14

كان اهتمام سوسير باللغة المنطوقة أو لغة الحديث بالغ الأهمية على أنها المظهر الأول والأساس للغة وان اللغة المكتوبة مظهر ثانوي لانه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس ، وأكد أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها اصطلاحية اتفاقية ، وأن العلاقة بين المفردات ومعانيها علاقة اعتبارية عشوائية . 15 وهكذا رفض سوسير المنهج التاريخي وأقام على أنقاضه منهجا جديدا هو المنهج الوصفي لأنه في رأيه الطريق الوحيد لبحث اللغة على أساس علمي .

ثم ساد هذا المنهج ونال احترام اللغويين الذين جاءوا بعد سوسير في أوروبا وأمريكا وعلى الرغم من أن أصحاب المنهج الوصفي سعوا إلى استقلالية علم اللغة و أنهم لم يحجموا عن الاستفادة من نتائج العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الطب وعلم التشريح وكان سوسير نفسه متأثرا بعلم الاجتماع .

وكان ظهور المنهج الوصفي في دراسة اللغة بوجه عام ودراسة النحو بوجه خاص يعد ثورة في علم اللغة ، فقد شاع هذا المنهج، وكتبت له السيادة لا في أوروبا وأمريكا حسب بل في الوطن العربي أيضا ، حيث برز عدد النحاة الذين تأثروا به، وعدوه المنهج الصحيح في دراسة اللغة العربية، ثم حملوا على النحو التقليدي لاعتماده على المنطق والفلسفة، وتجاوزته ظاهرة التركيب اللغوي إلى ما وراءه من ألفاظ مفترضة، لا ينطق بها المتكلم فعلا ، ولا تبرز على سطح اللغة كما يقولون . إن الاهتمام باستعمال المنهج الوصفي المعاصر للغة جعل علماء اللغة يقيمون هذا المنهج على أسس ثلاث وهي :

1- الزمان: بحيث تحدد المدة التي تدرس فيها اللغة، ذلك أن اللغة تتغير بمرور الزمن ، فلا بد من استقرار نظامها في وقت تناولها بالدراسة ، على أن يشمل البحث مدة أطول، تجنباً لظواهر لغوية تخلى عنها الاستعمال وقت إجراء الدراسة ، لأنها ترجع إلى عصور قديمة . فتضييق مدة البحث أمر مهم في المنهج الوصفي ، ضمانا لاستقرار اللغة المدروسة، وثبات خصائصها ونظامها، وتجنباً لأية ظاهرة قد تتسلل إليها من زمن سابق .

فقد فرق سوسير " بين الدراسة الحركية للغة وهي وصف للغة من خلال تطورها التاريخي ، والدراسة السكونية التي تهتم بوصف حالة معينة من اللغة في مدة ما . 16 فاللغة

في نظر الوصفين ينبغي أن تدرس في مرحلة خاصة ،وفي حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة ، واتخذ لذلك مصطلح سانكونيك للدلالة على هذا المنهج، وهو الذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين.17

2 - المكان: اللغة تختلف باختلاف الزمان والمكان، والثابت أن انعزال بيئة عن أخرى قد يؤدي إلى تشعب هذه اللغة إلى لهجات كثيرة، ويكون ذلك بفعل عوامل جغرافية أو اجتماعية فيترتب قلة احتكاك بعضهم ببعض. ويتبع هذا تكوين مجاميع صغيرة من بيئات لغوية، تتسم كل منها بخصائص لغوية تميز لغتها عن اللغة الواحدة ولغات ال بيئات الأخرى . فالمنهج الوصفي يتطلب الاستقرار وتجانس الخصائص في اللغة التي يتخذها موضوعا للدراسة.

3 - مستوى الأداء: بالإضافة إلى اختلاف اللغة باختلاف الزمان والمكان وهي تتنوع بحسب طرائق الأداء في التكلم ففي كل لغة طرائق مختلفة للتعبير، ولكل طريقة لغة ت لانمها، ومستوى من الأداء لا يصلح إلا لها. وقد يتخذ الواصف للغة معينة الخطوات التالية الاستقراء ويتم ذلك بالاتصال المباشر والسماع من الأفواه وهذا ما يعرف في المنهج الوصفي (الدراسة الحلقية) لأنها تقوم على الاتصال المباشر باللغة المنطوقة كما هي .

ثم تقسيم المادة اللغوية وجمع ما يتوافق منها في الشكل أو الوظيفة أو فيهما معا وجعلها قسما قائما بذاته ثم تسميته باسم معين فالتصنيف يقوم على أساس ملاحظة المادة اللغوية المستقرأة وإيجاد أوجه الاتفاق والاختلاف بين جزئيات هذه المادة فما توافق منها اختلف وانضوى تحت صنف بعينه وما تناكر منها اختلف وانضوى تحت صنف أخر .

ثم تأتي مرحلة التعميد " وليست القاعدة هنا قانونا يفرضه الباحث على المتكلمين باللغة ، وإنما هو تعبير عن شيء لاحظه الباحث وكان عليه أن يصفه بعبارة مختصرة قدر الإمكان."18.

إن أفكار وتحليلات ودراسات المدرسة الينبوية كانت ولا تزال تؤثر سلبا أو إيجابيا في كل تفكير معاصر لغويا كان أم أدبيا أم أسلوبيا . وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر لغويون عارضوا المنهج التاريخي المقارن وحملوا على أسلوب مقارنة اللغات الحية بلغة ميتة ، وكان اللغوي السويسري (سوسير) المتوفى عام 1913 من أوائل اللغويين المعاصرين الذين عارضوا البحث التاريخي المقارن ، وذهب إلى أنه لا يصلح لدراسة اللغات الحية ثم قرر سوسي ر أن اللغة ينبغي أن تضيق دائرة درسها، فتدرس في مرحلة خاصة وفي بيئة مكانية وزمانية محدودة و أطلق على منهجه هذا (المنهج الوصفي).

بعدها كانت الدراسات اللغوية تركز أساسا على الفيلولوجية ، انطلاقا من البحث التاريخي للظواهر اللغوية وتبنت هذه الطريقة جماعة من النحاة الشبان واعتبرتها الطريقة الوحيدة لدراسة اللغة ، غير أن هذا الاتجاه لقي اعتراضا شديدا فالتناول التاريخي للظاهرة اللغوية ليس كما يرى أصحاب هذا الاتجاه تناولا علميا، لأنه لا يستطيع أن يطبق مبادئ البحث العلمي، وتقرر أن اللغة ينبغي أن تدرس في حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة، وقد اتخذ لذلك مصطلح synchronic للدلالة على هذا المنهج، والذي ساد علم اللغة

منذ ذلك الحين 1. فدراسة اللغة في حال استقرارها هو ما يعرف الآن بالمنهج الوصفي الذي يراه اللغويون المحدثون حتى الآن المنهج الصالح لدراسة اللغة على أساس علمي.

ثنائية التفكير الألسني عند جاكبسون

التزامن والتعاقب

يلاحظ من خلال دراسات جاكبسون للغة أنه أولى اهتماما بالغ الأهمية لدراسة التزامنية للغة دون أن يغفل الدراسة التعاقبية، فقد حلل الآثار الأدبية في تراكيبيها وصورها وبخاصة فيما تعلق بالأصوات اللغوية كما هي منطوقة ومسموعة لا كما كانت عبر التاريخ والعصور، فهو يركز في دراسته للصور البيانية على الاستعارة والمجاز المرسل، وفي لغة المصابين بالحسبة وعدم مقدرتهم على بث الرسائل أو استيعابها فهذه الدراسات لا تحتاج إلى تعاقب الأحداث في تفكير جاكبسون فهو ليس بصدد دراسة اللغة واللسان بقدر ما هو وظيفة هذه اللغة أو اللسان.

أولى رومان جاكبسون اهتمامه لدراسات الثنائية وخصص لها حيزا في دراسته اللغوية ليبرهن على أن التزامن هو مقياس لدراسة أحداث لغوية تكون بوقوعها المتزامن حالة من حالات اللغة - أما التعاقبية فهي دراسة تاريخية للغة في تطورها وتغيرها - وما ينطب على الألسنية ينطبق على الدراسات الأدبية والشعرية .

يرى جاكسون أن هذه الدراسات، وخاصة لدراسة الشعرية، تقوم على مجموعتين من المسائل : مسائل تزامنية ،ومسائل تعاقبية، فالمنظار التزامني لا ينظر إلى الأدب في حقبة معينة فقط، بل ينظر إلى ذلك القسم من التراث الذي بقي حيا أو الذي تم إحياءه في الحقبة موضوع البحث . و انتقد الفصل بين التزامن والتعاقب وأعتبر أن لا مبرر له . لأن كل بنية لغوية كانت أم أجنبية تعمل في حركة وتطور ثابتين ومستمرين مما يجعلها بنية تعاقبية - في حين أن انتماءها إلى نظام ثابت ومنهجي أيضا يجعلها كذلك بنية تزامنية - لو أخذنا نظاما لوجدنا فيه عناصر تتفاوت في قدمها - وذلك لأن الحقائق اللغوية لا تتطور جميعها بالسرعة نفسها - فالتزامن الخالص لا وجود له، فكل نظام تزامني يتضمن ماضيه ومستقبله اللذين يكوّنان عناصره البنيوية الأزمة له .

إن التزامن ليس بالضرورة سكونا، فما نشاهده في شريط تلفزيوني خلال فترة معينة ليس ساكنا، بل هو عبارة عن مجموعات أحداث. أما السكونية فقد تجسدها لوحة زيتية لا تتل بالضرورة على أحداث ومشاهد متزامنة ، فيجب ألا نخلط بين السكونية والتزامنية لأن كل حقبة تتضمن أشياء محافظة وأشياء جديدة .

ونستطيع أن نلاحظ من خلال دراسات جاكسون أنه قد أهتم بالدراسة التزامنية للغة دون أن يهمل الدراسة التعاقبية، فقد درس الآثار الأدبية في تراكيبيها وصورها، كما درس لغة المصابين بأمراض الكلام والسمات التمايزية وأنواعها، فكل هذه الدراسات لا تحتاج إلى دراسة اللغة دراسة تاريخية، وإنما تحتاج، إلى دراسة العلاقات بين المفردات المتواجدة في الجملة الواحدة أو النص الواحد، أي أنها تحتاج إلى الدراسة التزامنية دون اللجوء إلى معرفة تاريخ كل لفظة وتطور استعمالاتها .

إن اعتماد جاكسون على ثنائية دي سوسور في التزامن والتعاقب لم يكن عشوائياً فليس هناك زمن ثابت في مفهوم جاكسون، فما يكون تزامنيا في هذا الزمان، يصبح تعاقبي بعد حين . فليس هناك من زمن ثابت في مفهوم جاكوبسون وليس هناك من زمن عالمي موحد، فكل نظام من الأنظمة هو في حركة ذات زمن خاص تختلف سرعته من زمن لآخر . 20

المحور الاستبدالي والمحور النظمي:

يكمن إزالة الإبهام واللبس عن النظريات البنوية الحديثة بناء على العلاقات القائمة بين الإشارات التي تتكون منها هذه التراكيب وذلك على محورين أساسيين هما المحور الاستبدالي والمحور النظمي . وهذا التفسير يقوم كذلك على ثنائية العلاقات النظامية " Syntagmatiques " التي جاءت في أعمال سوسير - وهي علاقات توجد بين وحدات تنتمي إلى مستوى واحد . وتكون متقاربة ضمن منطوقة معينة أو عبارة معينة أو مفردة معينة - ويمكن لهذه الوحدات أن تدعى كذلك بالمتفارقة . 21

أما العلاقات الإستبدالية : Paradigmatiques فهي تنتمي إلى مجموعة فرعية تتكون من وحدات يمكن أن تؤدي وظيفة نظامية واحدة في موضوع معين من المنطوقة أي أن كل واحدة منها يمكن أن تحل محل أي واحدة من أخواتها في منطوقة معينة - ومثال على ذلك مجموعة مفردات من فصيلة واحدة كالحمضيات مثلا . غير أن العلاقات النظامية التي تربط بين المفردات في المحور النظمي تختلف باختلاف الألسن . وقد أصبحت هذه النظرية بالنسبة لجاكوبسون أساسا للصور البلاغية الأكثر تداولاً في اللغة الأدبية، فجعل قطبي هذه الثنائية أساسا لمعظم دراساته الأدبية (الشعرية منها والنثرية) لدرجة أنه استعمل المحور النظمي مرادف للمجاز المرسل والمحور الإستبدالي كمرادف للإستعارة . 22

الانتقاء والتنسيق :

يعتمد الإنسان في كلامه على ظاهرتي الانتقاء والتنسيق فهما عمليتان رئيسيتان في سيرة الكلام ، فالتكلم يتطلب عمليتين أساسيين أولهما:

الانتقاء: يختار المتكلم بعض العناصر المجددة الموجودة في مخزونه اللغوي - تم يأتي دور العنصر الثاني المتمم والمتمثل في عنصر التنسيق بين هذه الوحدات المجددة والعناصر المختارة لتكون وحدات لسانية معقدة، فالتكلم يختار إزاء كلماته من الكنز اللغوي المعجمي الخاص باللغة التي يتكلمها ويؤلف بيدها في جمل تخضع لنظام هذه اللغة والجمل بدورها تتلائم لتكون عبارات .

وبعد ذلك تأتي المرحلة الثانية لتتم ما بدأه الإختيار ، وهي عملية التنسيق فيؤلف المتكلم بين الكلمات التي إختارها في جملة تخضع لنمو اللغة التي يستعملها ، وهذه الجملة تكون النواة للفقرة . والفقرة بدورها تتألف من غيرها من الفقرات لتكون النص ، وبذلك يكون الثنائي المتلازم الانتقاء والتنسيق في أساس تكوين الكلام 23

اللغة الهدف وما وراء اللغة

إن تفكيره اللغوي الثنائي ، لا ينظر إلى اللغة أنها شيء جامدا يتكون من كتلة واحدة، بل هي قسمان يكمل كل واحد منها الآخر، ولا وجود لأحدهما دون القسم الآخر، وهذان القسمان هما: اللغة والهدف وما وراء اللغة، وإذا ما قمنا في كلامنا بشرح كلمة ما، بواسطة الترادف أو التضاد فإننا نستعمل ما وراء اللغة في حين أن الكلمة المراد شرحها تكون هي اللغة الهدف. وهذه العملية الثنائية تعد في علم اللغة علما يعتمد ربط اللغة المحسوسة بما يقابلها في اللغة المجردة، وهي دراسة علمية لأنها تعتمد على التفكير المنهجي والمنطق، ولكننا نرى أننا نقوم بهذه العملية مرات عديدة كل يوم، وفي كل لحظة، دون أن نفكر بكيفية القيام بها ودون أن نعيها (24). فاستعمال اللغة الهدف وما وراء اللغة والذي لا يستقيم وجودهما إلا معاً، فهم جزءان من علم واحد هو علم اللغة، وقطبان لكنز واحد هو اللغة. ومن هنا تتأتى أهمية هذه اللغة الثنائية (اللغة - الهدف وما وراء اللغة) وهذه الثنائية مهمة جداً في عملية الفهم والإفهام والتواصل بشكل عام.

الخطاب الخارجي والخطاب الداخلي

إن الهدف الأساسي من استعمال الكلام هو إيصال رسالة ما إلى شخص معين أو إلى مجموعة من الأشخاص. ولذلك فإن استعمال الكلام يستوجب وجود عنصرين لا يكفون الحديث إلا بهما وهما المتكلم، الذي يؤلف المرسل تبعاً لأهوائه ورغباته، والمخاطب الذي يقوم بفك رموز هذه المرسل لفهمها. فهذا التواصل الخارجي Discours extérieur لا يقوم إلا بوجود قلمي الحديث (المرسل والمرسل إليه) بالإضافة إلى ضرورة وجود مرسله تنتمي إلى نظام مشترك بين طرفي التواصل ليتمكن كل منهما من فهم الآخر وإفهامه. إلا أن جاكوبسون يميز نوعاً آخر من التواصل، وفيه يكون المتلقي والمرسل شخصاً واحداً، ويسميه بالخطاب (أو التواصل الداخلي) Intérieur discours.

فاللغة الداخلية والحوار مع الذات لهما أهميتهما القصوى في التبادل الكلامي و

في إيضاح وإبراز أفكار جديدة بعيداً عن الرقابة المحيطة بالشخص المتكلم.

وقد يتخذ التواصل الداخلي أشكالاً كثيرة ومتنوعة وذلك بحسب المرسل المراد

توصيلها إلى المتلقي فالنواصل داخل الفرد هو أبعد من أن يجد بإشارات كلامية فقط، بل يستتبع أشكالاً كثيرة وعديدة. يندمج مرسل الرسالة ومتلقيها في "الأنا"، فيكون التواصل بالتالي بين الأنا والأنا في لحظتين مختلفتين وهنا يلعب الإنسان دور المرسل والمتلقي في أن معا وهذا ما يظهر خاصة عند الأطفال أو عند المجانين (25).

أما عند الكبار العاقلين فإن اللغة الداخلية تحتفظ بأثر الشكل الصوتي، وهو عبارة عن حركات لا واعية تقوم بها أعضاء التكلم ولكن دون إصدار الصوت فعلاً. فالكلام الداخلي يقوم على الكلام الظاهر، وهو عرض داخلي له، إلا أن هذا الحوار الداخلي لا يمثل أية بنية منطقية أو نحوية خاصة به.

السمات التمايزية:

ميز جاكوبسون بين ثلاثة أنواع من الثنائيات المتقابلة:

1- التقابل بين الصوامت الخلفية (طبقية أو غازية) والصوامت الأمامية (شفوية أو أسنانية).

2- التقابل بين الصوت الخفيض (grav) والصوت الحاد (aigu).

3- التقابل بين الصوامت ذات النغمة العالية والصوامت ذات النغمة الحادة . (26)

لم تقف دراسته عند هذا الحد، بل تابع أبحاثه حول السمات التمايزية، فرأى أن كل التقابلات التي يمكن أن نجدها في مختلف لغات العالم ترجع إلى اثني عشر تقابلا ثنائيا يمكن أن تحدد في مستويات شتى تتعلق بمراحل متتالية من صيرورة التواصل ، وخاصة المستوى النطقي والمستوى السمعي، وكل سمة من هذه السمات لا وجود لها بل لا أهمية لوجودها دون وجود الوجه الآخر لها . فعندما نصف صوتا بأنه مجهور فإنما نصفه بذلك لوجود سمة غير مجهور أو مهموس في اللغة عينها ومن الواضح أن هذه الثنائية ال محدودة في عدد صغير من التقابلات، تعكس ميل الاستعمال اللغوي إلى الاقتصاد في الجهد، كما تساعد في الوقت ذاته الدارس في تحليل البنيات اللغوية . ويخلص جاكوبسون من ذلك إلى القول بأن هذه الطريقة الأخيرة تسهل مهمة الإدراك باللجوء إلى ثنائية السمات التمايزية وما تقدمه من تبسط .

2) موقف النظرية التحويلية التولييدية من البنيوية :

فقد حاول تشو مسكي في هذه النظرية التعامل مع الظاهرة اللغوية من أجل تأسيس نظرية لسانية تملك الشرعية المعرفية، لان تكون بديلا جيدا يفي بمتطلبات الدال والمدلول على حد سواء ، وتلك الخاصية تميزت بها النظرية التولييدية من الاتجاه التوزيعي الذي أبعد عن اهتماماته الجانب الدلالي تحت تأثير النزعة السلوكية التي تعول على الجانب الشكلي دون سواه .

ولذلك فإن محاولة تشو مسكي في هذا الاتجاه ترفض المبدأ القائم على الملاحظة الشكلية للظاهرة اللغوية، لأن التحليل العلمي للحدث اللغوي ليس بوصفه الخارجي لما كان قد تلفظ به المتكلم فحسب ، وإنما هو تحليل العمليات الذهنية، التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يتكلم بجمل جديدة ومن هذا الم نطلق حولت النظرية التحويلية البحث اللساني من منظور النظر إلى الظاهرة بمعطيات الجانب السلوكي ، إلى منهج عقلي يعي الجانب الفكري للإنسان ويسعى من أجل تحليل الآلية الكاملة للغات الإنسانية.

ومن هنا أضحت الجملة قطب الرحى في الإجراء التولييدي والتحويلي ، وركنا أساسيا من بناءها النظري كما أن هذه النظرية تقوم على أسس واضحة تستند على المنطق الرياضي والتفكير العلمي المنظم ، ومن أهم هذه الأسس ما يسمى بالنحو الكلي universal grammer ومبناه هو أن الإنسان لا يكتسب اللغة وفق المنصور الآلي للمثير والاستجابة وإنما يولد مزودا بالية ذهنية ترتبط ببنيته العقلية هذه الآلية التي تجعل عملية الاكتساب اللغوي أمرا ممكنا دون الاعتماد على عملية التقليد والمحاكاة .27

وبذلك فإن عملية دراسة الجانب الخفي من الاكتساب اللغوي أمر مهم وهو ما أهملته النظرية السلوكية حيث اعتمدت على الشكل الخارجي لبنية وأهملت المعنى ومن هنا سعت هذه النظرية إلى وصف لساني كامل يجمع الشكل والمنى .

كما نجد أن تشو مسكي قد ركز على الإبداع الخاص بالجمال انطلاقا من القواعد في حين أن البنيويين يركزون على إبداع صيغ في مستوى الصرف أما الجمل فهي جاهزة مقلدة

وفي ذلك يوضح لنا عبد السلام المسدي الفرق بين هاتين النظريتين في قوله وتتمثل منطلقات المدرسة التحويلية في أن غاية اللساني أن يحلل المحركات التي يتوصل إليها الإنسان إلى استخدام الرموز اللغوية سواء أكانت نفسية أو ذهنية ذاتية فلا يمكن أن يقتصر عمل اللساني حسبهم على إقامة تبت الصيغ التي تنبئ عليها لغة من اللغات ، وإنما تتعدى ذلك إلى تفسير نشأة تلك الصيغ وتأويل تراكيبها حتى يهتدي إلى حقيقة الظاهرة اللغوية وقد ركز في التيار التحويلي غاية على المستويات العليا في الكلام وتتمثل في التراكيب والجمل معرضا نسبيا على مستويات الدنيا وهي مستوى الصرف ومستوى وظائف الأصوات .28

وبالعودة إلى تعريف تشومسكي للغة على أنها : ملكة فطرية تكتسب بالحس وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم باللغة إلا إذا سمع صيغها الأولية في نشأته فإن سماع تلك الصيغ ليس هو الذي خلق المقدر للغة في الإنسان إنما يقدر شرارتها فحسب وهذا ما يفسر الطابع الخلاق في الظاهرة اللغوية وكذلك طابعها اللامحدود، ومن هنا فإن المدرسة التحويلية تمثل نظرية متكاملة لوصف اللغة إذ أن مفهوم القواعد (النحو) في هذه النظرية شامل لقواعد الأصوات والصرف والنحو والمعجم في الوقت ذاته.29

كما أقر تشومسكي على أن نموذج الحافز والاستجابة يكون عاجزا في معالجة الحقائق المتعلقة بسلوك اللغة فعلى الرغم من أن هذا العالم قد رفض كل شيء أتت به البنيوية ولكنه في صميم أعماله التوليديه ، التحويلية إنما هو بنيوي إذ ما فعله هو أنه قلب البنيوية رأسا على عقب وأتى بشيء جديد لم تلتفت إليه البنيوية و هو دراسة اللغة على أنها ظاهرة فيزيائية رياضية آلية بيولوجية تعمل داخل الدماغ البشري .
بذلك نجد أن التوليديه اللغوية قد أعادت الاعتبار للمعنى في الوصف اللغوي و أدمجته في الوصف النحوي على غير طريقة التقليديين إذ سعت إلى وصف جميع لغات العالم لم من خلال بحثها في النحوي الكوني **Grammer national** الذي يمثل مبادئ رياضية تتصل باليات التفكير الإنساني وتظم جميع لغات العالم على الرغم من اختلافها .30

ن اللغة كما يرى تشومسكي هي أهم الجوانب الحيوية في نشاط الإنسان ، ولهذا ليس من المعقول أن تكون لها هذه الأهمية ثم تتحول إلى مجرد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون إلى تجريدها من العقل . 31. ومعنى ذلك أن هذا اللغوي كان يقيم نظريته على أساس عقلي ويحاول أن يفسر ظواهر اللغة تفسيرا عقليا يناسب أهميتها، ويكشف عمق أرواءها من دوافع عقلية ومنطقية. وعلى هذا الأساس قسم تشومسكي الكلام الإنساني على جانبين : الأول: ما ينطق به الإنسان فعلا وقد سماه (البنية السطحية للكلام).

الأخر : هو ما يجري في أعماق الإنسان ساعة التكلم فيدفعه إلى تفضيل هذه الصيغة أو ذاك التركيب، وسماه (البنية العميقة للكلام) . ومعنى ذلك أن اللغة التي ننطق بها فعلا إنما تكون تحتها عمليات عقلية عميقة ، ودراسة بنية السطح تقدم التفسير الصوتي للغة ، أما دراسة (بنية العمق) فتقدم التفسير الدلالي لها .

ومن أجل ذلك رفض تشومسكي المنهج الوصفي لقصوره، وعجزه عن الإيغال فيما وراء الأشكال اللغوية الظاهرة و المنطوقة أو المكتوبة. وقد طبق المنهج التحويلي على دراسة

النحو فظهر ما يسمى (النحو التحويلي) وهو كما تقدم يهتم بالبنية العميقة للكلام ويحاول أن يربط بينها وبين ما تتحول إليه من بنية سطحية . وتسمية هذا النحو بالتحويلي نابعة من انه يفترض لكل بنية ظاهرة، بنية أخرى عميقة كامنة في ذهن المتكلم، ثم يحاول الكشف عن كيفية تحول البنية العميقة الثانية إلى البنية السطحية الأولى، أو البنية الظاهرة الملفوظة. ولا بد لمن يتبع هذا المنهج في دراسة النحو من أن يعتمد على ال حدس أو التصور أو الفروض العقلية . ونشير إلى أن جو مسك ي الذي ينسب إليه هذا المنهج قد درس العبرية القديمة، وربما درس أصول النحو العربي عن الطريق المترجمات العبرية في الأندلس ، وهي مترجمات نقلت قواعد النحو العربي ، وطبقته على العبرية .

ومن هنا يمكن أن نفترض تأثر تشو مسك ي والمدرسة التحويلية بالدراسة اللغوية العربية القديمة . وأما على صعيد الغربيين تشو مسك ي أيضا لم يكن أول من فطن إلى هذا المنهج، وإن كان هو أول من أعطاه هذا المصطلح فقد أشار إليه لغويون غربيون بعبارات متفاوتة بين التلميح والتصريح، لعل من أفضلها عبارة أحدهم حين قال : " اللغة كجبل الجليد العائم وما هو مكشوف منه للملاحظة المباشرة أقل بكثير مما يخفى منه تحت الماء " .

أثر الدرس اللغوي في الفكر الغربي

من خلال دراستنا ووقوفنا على أهم النتائج العلمية التي توصل إليها التحويليون في ميدان الدراسات اللغوية تظهر لنا سمات أساسية من تراثنا النحوي في المنهج التحويلي، كانت بارزة واضحة في تفكير النحاة العرب ومن أهمها .
- البحث عما يسمى (الأصل والفرع) للظاهرة اللغوية ، لقد اهتم النحاة العرب بعدة قضايا لغوية ونحوية، واهتموا بالتعريف والتنكير و اعتبروا النكرة أصل والمعرفة فرع ، والمفرد اصل والمثنى والجمع فرعان عليه، ومن هذه السمات أيضا أنهم لم يكونوا يقتنعون بالوقوف عند البنية السطحية للغة ، وإنما يبحثون عما وراءها من علل وأسباب ، فالمضاف إليه لم يكن مجرورا إلا لأن الإضافة عندهم على نوعين : بمعنى اللام - وبمعنى من - ثم حذف حرف الجر وقام المضاف مقامه، فعمل الجر في المضاف إليه كما يعمل حرف الجر . (كتاب زيد - ثوب خن) أصل التعبير كتاب لزيد ، وثوب من خن .

وقف الوصفيون عند ظاهرة الجر في المضاف إليه واكتفوا بتسجيلها من غير أن يبحثوا عن سببها ، إذ لا دليل عندهم عليه بل هو مجرد افتراض . ويتضح مما سبق أن النحاة العرب كانوا أحنين بأكثر ملامح المنهج التحويلي، فهم يؤمنون بأن لكل بنية لغوية ظاهرة بنية نظمية عميقة كامنة في ذهن المتكلم، وأن وظيفة النحو توفيقية بين هاتين البنيتين .

فالمستثنى في نظر نحاة العرب ليس منصوبا عندهم ب (إلا) بل هو منصوب بفعل كامن في ذهن المتكلم تقديره (استثنى) أو منصوب ب (إن) مضمره، فأصل بنيته العميقة (قام التلاميذ استثنى عمرا) أو (قام التلاميذ إلا أن عمر لم يقم) ومن النحاة الغربيين من أصبح على قناعة بأن الاتجاه العقلي في فهم اللغة هو الاتجاه الصحيح، وأن الوقوف عند سطح الظاهرة اللغوية لا يكشف عن جوهر الظاهرة، وقد أطلقوا على هذا الاتجاه المنهج التحويلي،

وهو منهج آمن به اللغويون العرب منذ مئات السنين وأن جذوره واضحة في التراث النحوي العربي وربما كانت هذه الجذور أحد الأسس التي أقام عليها التحويليون منهجهم العتيق. 32 ونحن نشير إلى الجوانب التحولية في النحو العربي، لا بد لنا من القول أن جو مسكّي الذي رفض النهج الوصفي لقصوره على إدراك الجانب الخفي في اللغة ، أو لقصور المنهج الوصفي عن ربط اللغة بالجانب العقلي ، يشبه في عمله هذا عمل اللغوي العربي عبد القاهر الجر جاني فجو مسكّي كان معنيا بدراسة القدرة اللغوية ، وهي ملكة عقلية ، لا دراسة الأداء اللغوي ، أو كان مهتما بدراسة العلاقة الجدلية بين الكلام اللفظي والكلام النفسي، على ما هو الحال عند عبد القاهر الجر جاني في اعتماده على القول بالنظم المتمثل بالعلاقات المعنوية بين الأصناف النحوية، بل أن جهد كل منهما قد تبلور " في إعطاء النحو إمكانات تركيبية مستمدة من قواعده الفعلية بحيث أصبحت هذه الإمكانيات أشبه شيء بصندوق مفلق له مدخل ومخرج تدخل فيه المفردات وتتفاعل ثم تخرج على الصورة التأليفية الجديدة ونحن لا نلمس سوى المظهر المادي للعملية ، أما الجانب العقلي فهو خفي داخل الصندوق " . 33

عناصر تطبيق النظرية التوليدية التحولية:

لقد حدد أصحاب هذه النظرية عناصر التحويل في: 34

- **الترتيب:** وأصحاب هذا المنهج يأخذون بالرأي القديم القائل : (أن العرب إذا أرادت العناية بشيء قدمته) ، وبأخذون كذلك برأي الكوفيين الذين يجيزون تقديم الفاعل على فعله .
- **الزيادة:** ويقصد بها إضافة كلمات جديدة إلى الجملة التوليدية ، لتصبح جملة تحويلية
- **الحذف:** ويكون في ركن رئيس من الجملة التوليدية ، فتنحول إلى جملة تحويلية ، ولكنها تبقى على ما هي من حيث الفعلية أو الاسمية .
- **الحركة الإعرابية:** وتكون بمقتضى هذا المنهج " ذات قيمة دلالية كبيرة ، وبها يتم تحويل الجملة التوليدية عن أصل افتراضي كانت عليه للأخبار " 35 وهي لذلك ليست أثرا لعامل ، ولا حاجة لتقديره ، بل أن القول بالعامل يترتب عليه إهمال المعنى الذي جاءت الجملة أصلا له .
- وأما قول النحاة القدماء بأن الحركة الإعرابية أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل ، فقد رده بعض الأخذين بمنهج التحويل هذا فقال: " لهؤلاء نقول: أن الحركة الإعرابية شأنها شأن أي فونيم في الكلمة ، له قيمته وأثره في الإفصاح عما في النفس من معنى ، فيكون تغييرها محققا لما في نفس المتكلم من معنى يريد الإبانة و الإفصاح عنه . فإذا قال المتكلم : الأسد (بالضمة) فإن السامع يدرك أنه قد أراد نقل خبر ليس غير ، ولكنه أن قال : الأسد (بالفتحة) فإن المعنى يتغير إلى معنى التحنير ، الذي هو في ذهن المتكلم ، ويريد أن يفصح عنه ، ولا يستطيع تغيير أي فونيم في الكلمة غير هذا الفونيم ، فإنه إن غير فونيميا أخر في الكلمة تغيرت الصورة الذهنية التي ترتبط بها الكلمة بسبب ، فلا سبيل إذن إلى التغيير إلا في فونيم الحركة الذي يؤدي إلى صورة ذهنية جديدة ولكنها تتصل بالأولى بسبب ، فما كان التغيير في الحركة إلا نتيجة للتغيير في المعنى ... وليست الحركة نتيجة لأثر عامل كما يرى النحاة .
- فالحركة الإعرابية تكون " اقتضاء لقياس لغوي جاء به العرب ، وقد تتغير الحركة اقتضاء لعنصر من عناصر التحويل ، كالزيادة أو الحركة التي تنقل معنى الجملة من الخبرية

إلى التحذير أو الإغراء أو الاختصاص أو المعية ، أو إلى معنى الاستفهام بعد (كم) تفريفا لها عن الخبرية". فقولنا:(العلم نافع) إذا دخلت عليه (كان) اقتضى أن يكون الخبر منصوبا محولا إلى الزمن الماضي، فإذا دخلت عليه (إن) اقتضت إن يكون المبتدأ محولا إلى حالة التوكيد. وأما الجمل: لم يحضر خالد - لن يقرأ علي الصحيفة - لا نثعب وقت الدرس - لا رجل في البيت. فقد تغيرت الحركة الإعرابية عما ك انت عليه في بعض الكلمات اقتضاء لعنصر التحويل بالزيادة . " ففي الأولى انتقلت الحركة من الضمة على الفعل ال مضارع إلى السكون اقتضاء للحرف (لم) وتحويل الجملة في معناها إلى الزمن الماضي، في حين أن عنصر الزيادة في الثانية (لن) اقتضى فتحة، وتحويل معنى الكلمة إلى المستقبل، أما في الثالثة فاقضى عنصر الزيادة (لا) السكون وتحويل الجملة إلى معنى النهي .

وأما في الجملة الأخيرة فقد اقتضى عنصر الزيادة (لا) الفتحة في المبتدأ ونقله عن موضوعه الأصلي (المؤخر) في الجملة الأصل (في البيت رجل) واقتضى عنصر الزيادة أيضا نفي الخبر. 36 . ويمن أن نورد بعض النماذج من الجمل التي يمكن تحليلها وفق المنهج التحويلي، فمن الجمل التوليديية نقول: (الدرس نافع) فإذا زدنا عنصرا جديدا عليها وقلنا (كان الدرس نافعا) فبعدما كان الدرس يتصف بالنفع في البنية الأولى ، انتقل معناها من مجرد اتصاف بالنفع إلى كون هذا النفع قد حصل في الماضي وأن الفتحة التي لحقت (نافع) فهي حركة اقتضتها (كان).

وجملة (أكان الدرس نافعا) جملة تحويلية فيها عنصران من عناصر التحويل هما(همزة الاستفهام) و(كان) وقد نقل هذان العنصران التحويليان معناها من مجرد اتصاف الدرس بالنفع إلى السؤال عن حصول النفع في الزمن الماضي.

وجملة (نافع الدرس) جملة تحويلية، وعنصر التحويل فيها تقديم الخبر على المبتدأ، لأن المتكلم مهتم به في تسليط الضوء عليه، وهذا ما جعله ينقله من مكانه الطبيعي إلى مكان الصدارة في الجملة. و(أ نافع الدرس) فهي جملة تحويلية اسمية، فيها عنصران من عناصر التحويل هما (التقديم) و(همزة الاستفهام) فالمتكلم مهتم ب(نافع) وسائل عن تحققه.

موقف علماء العرب من الدرس اللغوي الحديث

في حقيقة الأمر إن علماء اللغة العرب بخاصة النحاة منهم في حاجة ماسة إلى دراسة ميدانية متأصلة انطلاقا من التراث العربي العريق ، ولن يتأتى ذلك إلا بالرجوع إلى فهم الأصول لنستقيم الفروع، وان يقتصر الجهد العلمي على الثقافة الإسلامية جملة وتفصيلا.

فالدراسات اللغوية العربية لا تحتاج إلى إصلاح لأنه مرتبطة بتاريخنا وديننا، كل ما في الأمر أن يجتهد المحبون والغيورون عليها بأن يعودوا إلى الأصول ودراستها دراسة المتعمق وأن ندرس القضايا اللغوية "دراسة جييدة لا تمس الجوهر، إنما ينبغي أن تتجه الدراسة إلى التراكيب الأسلوبية قصد تسهيلها وتبسيطها وتقريبها إلى الأذهان، والعمل على حذف الآراء الانفرادية، والشاذة وهي آراء في رأينا زادت النحو العربي تعقيدا لكثرتها وتباينها إحياء للتراث النحوي العربي القديم وإخراجه إلى حيز الوجود في ثوب جديد لائق بهذا العلم". (37) هذه

القضايا اللغوية جديرة بالدراسة والبحث، وهي في حاجة ماسة إلى من ينذرنا نفسه وينقطع لها خدمة للعلم وبناء لصرحه.

إن الدراسات العربية والغربية كانت ولا زالت وستبقى متواصلة للوقوف على أسرار هذا العلم الذي حافظ على كتاب الله من ذبوع اللحن وخوفا عليه من عوادي الفتنة فالقرآن الكريم بقي دستور الإسلام نصا موثوقا بكل تفاصيله بدءا من خروج حروفه إلى علامات إعرابه إلى ألفاظ كلماته إلى تركيب جملة إلى أماكن الوقف من خلال هذه الجمل وفي نهايتها، ثم هو نص معجز سواء من حيث المعنى السامي القصد، ومن حيث المبنى المحكم النسيج، هذا من جهة أما من جهة أخرى فلأزالة الغموض والتناقضات الحاصلة في الشكليات التي طغت على الجوهريات في الكثير من الدراسات ، تيسيرا ونسهيلا من ها لإبعاد عنه التقديرات والتأوي لات والتفسيرات الفلسفية المعقدة، التي حالت دون تمكين القراء من ناصية اللغة.

ثم يأتي العصر الحديث ويأخذ النحاة المحدثون من العرب على عاتقهم النهوض بالدرس النحوي، وبعد مخاض امتد قرابة أربعة عقود تنبه هؤلاء إلى أن من السبل الكفيلة بتحقيق المقاصد المرجوة في هذا الميدان تأكيد وظيفة الكلمة في التراكيب اللغوية . وفي مطلع السبعينات يصعد تمام ببناء جديد للنحو جعل فيه المعنى غاية الدرس اللغوي، وتأثر سياق الحال وسماه (المقام) وجعل السياق اللغوي موازيا له وأطلق عليه (المقال). (38)

ومعلوم أن (تمام حسان) نحا منحى وصفيا في أنظاره ، كما أن تأثيره بنظرية فيرث في سياق الحال أسبغ على عمله جانبا وظيفيا مهما ، وعليه فقد وصف (تمام) النحو العربي من منظور وصفي وظيفي ، وهو المنحى الذي استخدمه جعفر ذلك الباب ، فيما بعد ، في وصف نظرية الإمام الجرجاني في النظم، وأنماط الجملة العربية . (39) وينبغي لي أن أشير هنا إلى أن إطلاق مصطلح "وصفي وظيفي" على ما قام به (تمام حسان) و(جعفر ذلك الباب) لم يأت اتفاقا، ذلك أن (تمام حسان) قد تناول النحو العربي تناولا وصفيا بعيدا عن التعليل والتقدير ، كما أنه في الوقت نفسه أخذ بفكرة "اجتماعية اللغة" وذلك يستلزم أن يكون للكلام وظيفة واستخدام، وبهذه الميزة يكون منهجه وصفيا من ناحية ووظيفيا من ناحية أخرى.

أما جعفر ذلك الباب فقد أسس تحليله للجملة العربية على أساس المنهج الوصفي الوظيفي الذي يستطيع الربط بين دراسة بنية الجملة ووظيفتها التي يبحر ددها الموقف الكلامي، وهو يذكر ذلك صراحة في معرض حديثه عن نظرية الإمام الجرجاني . فالنهج الذي اتبعه هذان الباحثان ليس وصفيا خالصا ولا وظيفيا محضا، وهو يمكن أن يكون في رأيي حلقة وصل بين الوصفية والوظيفية التداولية.

يظهر جليا منهج تمام حسان من خلال نموذجه "اللغة العربية معناها ومبناها" وهو يهدف إلى إلقاء ضوء على التراث اللغوي من خلال المنهج الوصفي، ويفصح إلى جانب ذلك عن أنه أقام بناء هذا النموذج على أساس أن المعنى هو الغاية في ضبط العلاقة بين الشكل والوظيفة ، منوها إلى أن النحاة العرب القدامى وجهوا جل عنايتهم إلى المبنى، ولم ينتبهوا إلى جعل المعنى فيصلا في إقامة التوازن بين الأشكال والوظائف ، وهو يعزو هذا المنحى في البحث لدى النحاة القدامى إلى نشأة الدراسات اللغوية العربية .

وخلاصة القول في نموذج تمام حسان أنه جعل اللغة نظاما ينتظم أربعة مستويات هي :
المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى النحوي، والمستوى الدلالي، و حاول أن يفسر
العلاقات بين هذه المستويات بالنظر إلى ثنائية (المبنى والمعنى)، فمزج بين معطيات علم
النحو وعلم المعاني، مستندا في ذلك إلى النموذج البصري أو نحو جمهرة النحاة بتعبير أدق .
فإن العمل الذي أنجزه تمام حسان، كان نموذجا لأول دراسة متكاملة على أساس
المنهج الوصفي البنوي أعاد صاحبه من خلاله درس النحو العربي القديم من منظور وصفي ،
في وقت اكتفى فيه الآخرون ممن ادّعوا في الناس أنهم وصفيون ، بملاحظ لا ترقى إلى مرتبة
الأعمال المتكاملة كتلك التي أقامها تمام حسان.

الإمالات

- 1- فقه اللغة في الكتب العربية - دا عبده الراجحي ص12
- 2- المرجع نفسه ص15
- 3- علم اللغة د/ محمود السعران ص 337بيروت 1962
- 4- دراسات في اللسانيات التطبيقية د/ احمد حساني ص 24
- 5 - النحو العربي والدرس الحديث د/ عبده الراجحي ص 28 دار النهضة العربية بيروت 1986
- 6 - مدخل إلى علم اللغة. محمد عبدا لعزيّ ص 292. دروس في الألسنية العامة. سوسر ص29
- 7 - علم اللغة بين التراث والمعاصرة ص 30د/ عاطف منكور القاهرة 1987
- 8- المرجع نفسه ص 30
- 9 - المرجع نفسه ص 31
- 10 - مدخل إلى علم اللغة د/ محمود فهمي حجازي ص 11- 1978
- 11 - النظرية الألسنية عند جاكبسون د/ فاطمة طبال بركة ص 69 المغرب
- 12 - علم اللغة العربية د/ محمود فهمي حجازي ص27 - الكويت 1973
- 12 - المرجع نفسه ص 28
- 13- مدخل إلى علم اللغة د/ محمد حسن عبدا لعزيّ ص 125
- 14- علم اللغة العام - سوسير - ترجمّة يوثيل عزيز - ص 110- الموصل 1988
- 15- المرجع نفسه ص 91
- 16- أثر محاضرات دي سوسير فيالدراسات العربية الحديثة - حيدر سعيد ص 60 -
- 17- النحو العربي والدرس الحديث د/ عبده الراجحي ص 29 دار النهضة العربية بيروت 1986
- 18 - اللغة بين المعيارية والوصفية - د/ تمام حسان - ص 165
- 19 - منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث - علي زوين - 11 - 1986
20. Elmar Holens jakobsonou le structuralisme phenomenologique p 42

- 21- جورج موانان " اللغة والتعبير " ، مجلة اللسان العربي محمد سابيلا العدد رقم، 26
- 22 - دروس في الألسنية العامة - سوسير - ترجمة صالح القرمادي ومن معاه ص 45 - 49
- 23- المرجع نفسه ص53 - 54
- 24 - النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون ص 40 - 41 د/ فاطمة الطبال المغرب
- 25 - دراسة الصوت اللغوي - د/ أحمد عمر مختار ، ص 163
- 26 □ François La traverse « Remarque sur le binarisme en phonologie p42
- 27- نظرية تشومسكي اللغوية د/ - حلمي خليل ص 36
- 28- التفكير اللساني في حضارة العرب د/ عبد السلام المسدي ص19
- 29- دراسات في اللسانيات التطبيقية - د/ مازن الوعر ص254
- 30- المرجع نفسه ص 32
- 31- دراسات في اللسانيات التطبيقية - د/ احمد حساني ص 26
- 32- في التحليل اللغوي - د/ خليل عمارة ص 87
- 33- المرجع نفسه ص87
- 34- المرجع نفسه ص 96
- 35- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة - د/ نعمة رحيم ص 200
- 36- النظريات التحويلية في الدراسات النحوية العربية - د/كريم عبيد عليوي ص 77
- 37- من المعاني النحوية في اللسانيات العربية. منصف عاشور. مجلة الموقف الأدبي سوريا ع135
- 38- اللغة العربية معناها ومبناها - تمام حسان ص 372
- 39 - مدخل إلى اللسانيات العامة أو العربية جعفر دك الباب ص 135